وثائق وأحداث

العرب في العصور الكلاسيكية القديمة

تعريف لكتاب فرانتس التهايم وروث شتيل[1]

(تابـع)

بقلم الدكتور مارتينانو رونكاليا
المعهد الألماني للابحاث الشرقية في بيروت

يمبولوس (صفحة ٨٠ــ٩٢)

يمبولوس هو مؤلف آخر رواية سياسية وصلت الينا وهي تحمل عنوان « مدينة الشمس ». ونحن لا نعرف المؤلف إلا من خلال خلاصة متقضبة تركها لنا ديودوروس وقد يحرفها هذا الأخير ويضفي عليها مسحة من الدعابة دون أن يكون لنا يد في التحقق من ذلك ويكتفي لوقيانوس السميساطي[2] بذكرها في رواياته الحقيقية »[3] ويقدمها لنا كقصة خيالية لعجائب الأوقيانوس. وعليها بهذا العدد لدراسة هذه الرواية الاكتفاء بالفصول الثلاثة التي يخصصها لها ديودوروس (٢ : ٥٥ــ٦٠).

كان يمبولوس منذ حداثته شغفاً بالعلم وقد أخذ. وهو ابن تاجر؛ يتعاطى التجارة بعد وفاة والده: وبينما كان يجتاز الجزيرة العربية في احدى رحلاته قاصداً بلاد الأفاوي. وقع مع أحد رفاقه في قبضة قطاع الطرق وأوكل اليه مع أحد ابناء بلده رعاية الأغنام. وبينما كانا يقومان بعملهما

---

(١) *Die Araber in der Alten Welt*, von Franz Altheim u. Ruth Stiehl; Berlin, Walter de Gruyter and Co., 1964 *sq.*

(٢) Lucien de Samosate

(٣) *Histoires vraies*, I, 3.

احتفلهما في هذه المرة الأحباش وقادوهما نحو شاطئ بلادهم بغية استخدامهما في عملية تطهير شعبهم في احتفال تقليدي مهيب يقام مرة واحدة في كل ٦٠٠ سنة . وكانت مراسيم الاحتفال تتم على الشكل التالي : يجهز مركب مع مؤونة تكفي لإطعام رجلين مدة ستة أشهر ويدفع المركب مع ملاحيه الى البحر ويؤمر الملاحان بالاتجاه نحو الجنوب . وقد يصل الرجلان بهذه الطريقة الى « جزيرة سعيدة » يقضيان فيها حياة سعيدة . ويتفاءل الاحباش اذا تم هذا الأمر على الوجه المتوقع له ويظنون أنهم سوف يتمتعون باليمن والأمن مدة ٦٠٠ سنة ولكن في حال ارتياع الرجلين من البحر ورجوعه وعودتهما على أعقابهما ينزل بهما الأحباش اشد العقوبات كفارة عن خطيئتهما اذ يعتقدون ان سلوك الرجلين سبب لكامل شعبهم تحت السماء . وقد قام الأحباش حسب مراسيمهم بتقديم الذبائح على شاطئ البحر الاحمر وكلفوا بالظهور الملاحين المغلوبين على أمرهما ودفعوهما الى الاوقيانوس وقد نفي الملاحان . حسب ما توقعه لهم الأحباش ، عدداً كبيراً من الغواصين فوجده واخبرا مدة اربعة أشهر قبل ان ينزلا على ساحل « جزيرة الميعاد » وهي جزيرة مستديرة الشكل يبلغ محيطها ٥٠٠٠ غلوة تقريباً . وقد أحسن سكان الجزيرة استقبالهما وضيافتهما . ونجد في الكتاب بعد التفاصيل التي تتعلق بالرحلة . وصفاً غريباً لما يتفرد به سكان الجزيرة وطبيعتها : يتشابه كل سكان الجزيرة ويبلغون جميعاً الطول نفسه اي ما يقارب الأربع أذرع واجسامهم في غاية المرونة وهي جميلة ومتناسقة ... يعمر السكان ويعيشون غالباً دون أن تنتابهم الأمراض ويخضعون لناموس لا مفر منه يقضي بأن ينتحر المصابون بالعاهات والمتعبون كما أنهم يخضعون لقانون آخر يحظر على الشيوخ العيش اكثر من ١٥٠ سنة وكل من يبلغ العمر المحتوم فعليه ان يضع حداً لحياته . وقد نجد هذه العادة متبعة في كايوس[1] (انظر سترابون : ١٠ : ٤٨٦) . فيأتي من يقصد التخلص من حياته تحت نبتة معينة حيث تواتيه المنية برفق . وقد يخضع السكان أعظم فخة اصطناعية فهم يضعونهم على ظهر طائر كبير يرتفع بهم الى الجو وهم يحتفظون بالاطفال الذين يتمتعون بالقوة الكافية لتحمل تلك الفخة . أما الذين يرتاعون ويصابون بداء الطيران (التقيؤ) فهم يقضون عليهم بحجة أنه لم يكتب لهم العيش المديد وبحجة أنهم لا يتحلون بالخصال الحميدة (أشار اونيزيكريتوس الى عادة مماثلة شاعت في شعب هندي) .

(١) Κπος

بما ان الجزيرة السعيدة تقع على خط الاستواء فيكون مناخها لطيفاً ويعيش سكانها في اجواء الطلق وتكون أرضها خصبة للغاية حتى أنها تعطي تلقائياً كميات من الثمار تفوق احتياجات السكان . وينبت فيها عدد كبير من الاشجار كالكروم والزيتون دون أن يتعهدها أحد ويعيش سكانها بتشف رغم خصب الطبيعة ويهتمون خاصة بالتنجيم وتتألف اقباؤهم من سبعة أحرف فقط تكتب بأربعة اشكال مختلفة بحيث تعبر عن ٢٨ صوتاً وتكتب الاحرف عمودياً . ويعبد السكان بشكل خاص قبة السماء والشمس والاجرام السماوية ويعيشون موزعين على جماعات قوامها السياسة المشتركة ونتائج الدم ويتولى حكم كل جماعة الاكبر سناً يطيعه باقي الأفراد بصفته قيماً عليهم . وهم يتوزعون الاعمال الخدمية بالتناوب كما أنهم يمارسون الاعمال الادارية بالتناوب ايضاً . وهم لا يتزوجون ويعتبرون النساء مشاعاً وهم يوزعون بالتساوي عطاياهم على اصدقائهم الذين يحسبونهم ملكاً لهم جميعاً ؛ وهكذا يجهلون نساءهم ورجالاً وباء الغيرة والحسد .

أقام يمبولوس ورفيقه سبعة اعوام بين سكان الجزيرة ثم طردهما هؤلاء لكونهما قد اكتسبا في حداثة سنهما العادات البذيئة فاجبر الرجلان وابتعدا عن الجزيرة وبعد رحلة دامت اربعة اشهر . جنح بهما مركبهما الى شاطئ هندي وعلى تكثر فيه المستنقعات . تفنى رفيق يمبولوس غرقاً أما يمبولوس فقد أسره السكان ومثل أمام الملك الذي كان يحب الاطلاع والثقافة اليونانية فرحب هذا بيمبولوس اجمل ترحيب ومنحه ؛ في نهاية الأمر ؛ رخصة مرور أتاحت له اجتياز بلاد فارس والعودة سالماً الى اليونان .

هذه هي خلاصة الرواية الأدبية المأثورة ؛ وقد أراد انتهايم وشتيل تحويل اطر الرواية الأدبية القصصية الى أطر رواية تاريخية بشرط أن نقبل ان اسم يمبولوس هو اسم سامي قد يكون على وجه الدقة تبطياً ي ن ب ن أو ي ن ب ل و وقد استعمل الأنباط دوماً في نقوشهم الأحرف الآرامية لتسجيل اسماء كانت دوماً عربية . واعتماداً على ما تقدم . قد يكون يمبولوس ابن تاجر خرج من بلاد الأنباط القريبة من حجرا . ليسلك طريق العطور التي عرفها ابيد قبله اي كيدان فيثرب فمكة ومنها الى صنعاء في قلب اليمن . يقول سترابون انه تستطيع قافلة جمال ان تجتاز الطريق المتجهة لخليج العقبة بمدة سبعة عشر يوماً وهكذا يكون البدو قد هاجموا يمبولوس وسطوا عليه قبل ان يصل الى قبيلته ثم . بعد سبيه ؛ كلفه هؤلاء برعي ماشية

سيده ولكن طريق العبور لم تكن ببعيدة من البحر الاحمر فداهمه الاحباش الذين جاءوا من شواطئ البحر الاحمر من اريتيريا على وجه الدقة وسبوه.

وقد يكون تيبولس احد الانباط الذين تحلوا بالثقافة اليونانية ولذا نراه يؤكد في روايته انه تغذى منذ نعومة أظفاره بالثقافة اليونانية ونستطيع ان نجزم ان رواية مدينة الشمس ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظريات أفلاطون.

ان رواية تيبولس تطرح من المشاكل اكثر مما تحل منها فالفرضيات التي استهوت النهايم وشتيل قد تلقى بعض الاعتراضات رغم معرفة العالمين الدقيقة والمحصة ولكن الروايات اليونانية واللاتينية التي كانت تصنف عادة مع الانتاج الخيالي الذي يفرط في استخدام الخوارق والعجائب اخذت مع العالمين الالمانيين، اللذين تذرعا بمعرفتهما المحصة، تتقطع صلاتها بالعادات الفكرية والأدبية الشائعة وتنهج طريقة جديدة فهي اذ تميط اللثام عن الثوب القصصي الخداع وتتاح تتوخى كشف معطيات تتعلق بالتاريخ وبوصف البلدان وبأحداث الأعلام وبالثقافة العامة وقد تتجاوز اهمية هذه الأمور ما كنا نعيره عادة هذا النوع من الأدب.

خيال (٩٣ ـ ١٠٦)

نال موقف الأنباط من الدولتين الكبيرتين: دولة البطالسة ودولة السلوقيين: غير معروف على حقيقته الى ان تسنى للعلماء المحدثين كشف النقاب عن مكنونات المملكة النبطية.

يرى پليني (التاريخ الطبيعي، ٦: ١٥٥) ان اللحيانيين من شعوب جنوب الجزيرة العربية[1]. وكذلك يعتقد فرتر كسكل انهم من جنوب الجزيرة لأنهم بدأوا يؤرخون حسب التقويم الحميري منذ سنة ١١٥ قبل المسيح؛ ويعتقد كسكل ان پليني مدين في موقفه هذا لمصدر آخر سابق[2]. اما صاحب هذا المصدر فهو شخص يدعى اورانيوس (Uranios) كما بينت ذلك جاكلين پيرين[3]. واغلب الظن انه عاش في زمن متأخر بعض الشيء بالنسبة الى الفترة التي قال كسكل انها شهدت بزوغ نجم

(١) وهو يسميهم *Lechieni* أو *Lexiens*

(٢) Werner Caskel, *Das altarabische Koenigreich Lihyan*. 1951, 10; راجع ايضاً J. Ryckmans, *Bibliotheca Orientalis*. 18, 1961, 219 *sq*.

(٣) *Le royaume sud-arabe de Qatabân et sa datation*, 1951, 141 *sq*.

اللحيانيين اي حوالى سنة ١١٥ قبل المسيح[١]. والجدير بالذكر ان جاكلين بيرين قد اكتفت بتقديم الكتابة التي ذكر فيها وجود اللحيانيين في جنوب الجزيرة ؛ فما بقيت هذه الكتابة غير معروفة من كسكل.

كان موطن اللحيانيين الثاني في المنطقة الشاسعة جنوب بلاد الانباط وكانت المدينة الرئيسية فيه ديدان قرب مدينتي العُلى والحجر. «وكانت المسافة بين ديدان ومدين القديمة الى الشمال الغربي ؛ حيث مناجم الذهب، تقطع بخمسة ايام سيرًا على الأقدام باتجاه بحر القلزم. وكان طريق آخر يؤدي الى بلاد ما بين النهرين مارًا بواد الى الشمال الشرقي ؛ الا ان المسر الرئيسي كان عن طريق وادي ديدان نفسه وهو الطريق القديم الواصل بين المحيط الهندي والبحر المتوسط مارًا بغربي الجزيرة»[٢].

عثر علماء الآثار على بقايا عديدة وبيان وكتابات تسهل معرفة احوال مملكة لحيان. وقد توصل كسكل الى جمع ما توفر لدينا من معلومات حول اللحيانيين فصنف في تاريخهم ؛ منذ نشأتهم حتى زوالهم مصنفاً سيُعدّ من امهات المراجع لسنين طوال. ومما جاء فيه ان المينيين كانوا قد اسسوا مستعمرتين كبيرتين ؛ الأولى في ديدان والأخرى في الحجر على بعد ١٥ كيلومترًا منها الى الشمال ؛ وانه لم يكن ثمة علاقات تجارية بين المينيين من جهة ومصر واشور من جهة اخرى. ومما جاء ايضاً ان مستعمرات المينيين اضمحلت بعد ان استولى السبئيون على موطنهم الأم في مطلع القرن الثاني قبل الميلاد[٣].

الا ان هذه الآراء في تاريخ لحيان قد لاقت بعض المعارضة وسوف تلاقي بعد ؛ لا سيما ان الحفريات الجارية الآن في كامد اللوز (البتراء) باشراف الاستاذ رولف هخمن (Prof. Rolf Hachmann) ستميط اللثام عن امور جديدة بخصوص التجارة مع مصر. وقد قالت كسكل ما جاء في احدى الكتابات من ان رجلاً من المينيين كان وقوم له يترددون بين مصر وغزة و ا ا ش ر. فهذه الكتابة ذات شأن ؛ تناولها ج. ريكمانس بالدرس[٤] متابلاً اياها بما ورد في سفر التكوين ٢٥ : ٣ حيث ذكر من جملة ابناء ديدان الأشوريم ؛ مما يبيّن ان مينيّي ديدان والوطن الأم كانوا على اتصال

(١) W. Caskel, *Lihyan und Lihyanisch*, 1954, 36.
(٢) *Le royaume sud-arabe...*, 149 راجع — . *RES*, 3902, n° 10.
(٣) W. Caskel, *Das altarabische Koenigreich...*, 5 *sq.*
(٤) J. Ryckmans, dans *Scrinium Lovaniense*, 1961, 56.

بأشور . كما تؤيد ذلك دون مراء الكتابة ٣٠٢٢ . فقد جاء فيه ايضاً ان المينيين يتاجرون مع مصر وأشور و « عبر نهران » والاشارة الى « عبر نهران » تزيل كل شك بخصوص العلاقات مع اشور . الا ان الاستاذ كسكل لم يكن له علم بكل ذلك .

وقد فات كسكل ايضاً ان يأخذ بعين الاعتبار لائحة الاتاوى المكربين في معين حيث نجد شهادة تثبت ان تجارة المينيين كانت تصل الى غزة[1] . مما يقضي بتأخير تاريخ ازدهار المينيين حتى السنة ١٨٠ على وجه التقريب كما ارتأت ذلك جوكتين بيرين[2] . اما تاريخ زوال المستعمرات المينية في الشمال فقد يكون قبل سقوط الوطن الأم او بعده وعلى كل فان الابحاث التي اجريت حتى الآن قد بينت ان المينيين اقاموا علاقات تجارية مع النبطيين اقله حتى عام ٢١٧ وهو تاريخ موقعة رافية (Raphia) .

وثمة نقطة على جانب كبير من الأهمية وهي ما قاله ج. ريكمانس من ان وجود مستعمرات مينية في ديدان وجوارها لا يحتم البتة ان المينيين فرضوا سلطتهم على هذه المنطقة[3] . كذلك فان ورود اسم ديدان تسع مرات في لوائح معين للاتاوى المكربين لا يمكن الاستنتاج منه ان المينيين كان لهم ثمة اية سلطة . فهذه المدينة : ديدان . لم تكن من الممتلكات الخاضعة لسلطة سياسية بل مستعمرة تجارية : شأنها في ذلك شأن سائر الاماكن التي صدر عنها تقادم الى معين : كصيدون وموآب وعمّان وغزة ومصر .

هذا واذا ما انتقلنا الى الزمن المتأخر لا نجد من الوثائق الا تاريخاً واحداً حُفظ على ضريح نبطي في العُلى . يعود الى السنة الأولى من مُلك الحارث الرابع عاهل الأنباط . اي الى السنة ٩ قبل الميلاد[4] . ويستنتج كسكل من ذلك ان اللحيانيين خضعوا في القديم لسلطة الأنباط : وهذا ما يوافق الحقيقة . الا ان سلطة الأنباط هذه لم تفرض الا مدة وجيزة . ويستند كسكل لبيان ذلك الى ما رواه سترابون عن بعثة الى جنوب الجزيرة العربية بقيادة ايليوس گالوس (Aelius Gallus) حيث رُوي ان الجيش الروماني نزح عن لوكي كومي (*Leuke Kome*) والتقى بعد مسيرة عدة ايام الى بلاد نسيب للملك النبطي Obodas يدعى الحارث . احسن الحارث هذا وفادة

(١) ٢٧ من المقدمة المنوه بها في اللائحة معدودة غزة بينما ٨ فقط معدودا مصر .
(٢) *Paléographie des inscriptions sud-arabes*. I. 1956, 211.
(٣) *Serinium Locariense*. 1951. 52 et 55.
(٤) *Corpus Inscriptionum Semiticarum*. 2. 1, 332.

الرومانيين وتابعوا مسيرتهم فيما بعد ميسين شطر الحجر على شاطئ البحر الأحمر . حيث ركبوا السفن الى ميوس هورموس على الشاطئ الافريقي ومنه ارتحلوا الى الاسكندرية . نتيجة هذا الخبر انه في سنة ٢٥ قبل المسيح لم يعد بعد من وجود لمملكة لحيانية مستقلة : وقد لخصت جاكلين پيرين المسألة على هذا النحو[1] : دامت مملكة ديدان من القرن السادس حتى الرابع ثم خلفتها في منطقة العلى حلول المينيين من القرن الرابع حتى ايام البطالسة . من المسلم به اذاً ان مملكة لحيان : المعروف عنها انها قامت في هذه المنطقة ،التي عُثر على بعض كتاباتها القيمة ، ازدهرت في القرون الأولى قبل الميلاد . ومن الأكيد انه لم تقم مملكة لحيانية مستقلة الى زمن المسيح .

عمانه وجرّه (١٠٧-١١٣)

ابحث في عمانه وجرّه يعني التطرق الى اقدم آثار الوجود العربي في الخليج الفارسي .

جاء و. و. تارن[2] مرتين على ذكر مدينة اورموزد (Ormuzd) . في الصفحة ٢٦١ من مصنفه المذكور ادناه يقول ان اورموزد يجب اعتبارها ملتقى تجار بابل وپاتالا (Patala) وباريگازا (Barygaza) ولقد قر رأيه على تحديد موقعها عند موقع هرموزيا (Harmozia) على الشاطئ الكرماني الفارسي . ويعود تارن الى هذه المسألة في الصفحات ٤٨١ و ٤٨٥ من كتابه . اما ما يدفعه الى القول بأن اورموزد ما هي الا هرموزيا فهو أن پلينوس يذكر هرموزاي (Harmozaei) في « التاريخ الطبيعي » ٦:١٠٧ ويحدد موقعها في منطقة امانيس (Amanis) الخصبة . ومن المحتمل ان يكون العمانيين العرب القاطنون عبر الخليج قد سكنوا مدينة هرموزيا مدة الفترة المينية المتأخرة ، اذ اطلق عليها اسمهم وهرموزيا هذه كانت قرية او مدينة صغيرة محصنة بحواجز خشبية لحماية السفن في المرفأ . وقد وصفها پلينوس بأنها «مدينة خشبية انشأها الاسكندر»[3] .

اما الجراويون فأول ما نجد لهم ذكراً عند المؤرخ اليوناني اگاثرخيدس ثم عند سترابون . كان هؤلاء القوم يتاجرون بالأفاويه وكانت البتراء احد الأقصى لرحلاتهم وكانت قوافلهم تقطع المسافة بين خليج العقبة ومدينة معين

(١) *Histoire de l'Art. Encyclopédie de la Pléiade.* Paris. 1961. I. 910 *sq.*
(٢) W. W. Tarn, *The Greeks in Bactria and India*, 2nd edit., 1952.
(٣) « Xylinepolis ab Alexandro condito ».

في سبعين يوماً (سترابون ٧٦٦ و٧٦٨). اما مدنهم وقراهم فكانت تحوي بنايات شبيهة بالأبراج. ويصف پوليبيوس بلادهم بقوله انها شبه صحراوية[1]. اغلب الظن انهم كانوا يتكلمون بالآرامية مما يشير الى امكانية اصلهم البابلي. ثم ان كتابة زينون على البردي تأتي على ذكرهم سنة ٢٦١ قبل المسيح وكتابة في جزيرة ديلوس (Délos) تنوه برجلين اسم احدهما «اولوس الجرّاوي» والثاني «تيم اللاتوس الجرّاوي»[2] وبديهي ان هذين الشخصين يدعيان باسماء عربية: «اول» و«تيم اللات» — الا ان الأيام اناخت على الجراويين فاضمحل ذكرهم شيئاً فشيئاً ولم يستطع العلماء الى اليوم ضبط موقع عاصمتهم التي يظن انها كانت حيث تقوم اليوم اطلال ابي زهول قرب شاطئ الاحساء. ومهما يكن من امر فمن المسلم به ان جرّة كانت مدينة — مملكة: اسسها لاجئون كلدانيون من بابل ابتنوا لهم منازل مربعة من حجر وكانت طرق تجارتهم تفضي الى افشد والى البحرين والى سلوقية. عند مطلع القرن الثالث لمسنا ذكر جرّة: فلا وجود لاسمها في كتاب الرحلة حول بحر اريتريا. ماذا ترى كان الداعي لذلك؟ هل قضى عليها وعلى تجارتها تأسيس كزاكس؟ هل قلّص ظلها ازدهار اوريوزد القديمة او عمانة؟ الله اعلم!

(١) Polybios, 13, 9, 12 *sq.*

(٢) Ἄλλος Γερραῖος; Τιμόλαος Γερραῖος